أوضاع التيار الصوفي في الجزائر أواخر القرن 13هـ /19م
ـ دراسة لمظاهر وأسباب الضعف ـ

The Sufi movement in Algeria at the end of the 13th century AH / 19 AD
Study the aspects and the causes of weakness

1– الأمير بوغدادة*، جامعة بسكرة (الجزائر)
boughedada.elamir@univ-biskra.dz

تاريخ الاستلام: 2022/04/02 تاريخ القبول: 2022/05/31 تاريخ النشر: 2022/06/15

ملخص: يهدف هذا البحث إلى إبراز مظاهر ضعف التيار الصوفي وأسباب تراجع دوره وانحصار نشاطه في المقاومة الوطنية بالجزائر أواخر القرن 13هـ/19م، بعد أن كان هو صاحب الحل والعقد فيها، وكان أتباعه بمثابة الوقود الذي يمد هذه المقاومة بالطاقة التي تحتاجها وتبقيها نشطة في وجه الغزاة الفرنسيين. فهذا التيار حمل على عاتقه لواء مقاومة المحتل الفرنسي منذ أن فشل الجيش النظامي الذي يقوده الأغا إبراهيم صهر الداي حسين في التصدي للحملة الفرنسية على الجزائر، ومنذ أن سقطت السلطة المركزية التركية العثمانية بمدينة الجزائر سنة 1244هـ/1830م، فمن حينها أصبح هذا التيار هو السلطة السياسية والعسكرية والروحية التي تمثل الشعب الجزائري، وتعبر عن أماله وطموحاته، وتحارب باسمه الغزاة المحتلين.

كلمات مفتاحية: الصوفي، المقاومة الوطنية، المحتل الفرنسي، الشعب الجزائري.

Abstract: This research aims to highlight the aspects that weakest the Sufi movement and the reasons for the diminishing of its role in the National Resistance of Algeria at the end of the 13th century AH/19AD. Before that, the face of the French invaders .This current carried the banner of resisting the French occupation since the failure of the regular army led by Ibrahim, the son-in-law of Day Hussien. Since the Ottoman Turkish central hold the city of Algiers in 1244 AH/1830AD, This current hold the political, military and spiritual power and became the only authority that represents The Algerian people and fights in their name and seeks to achieve their hopes and aspirations.

*- المؤلف المرسل

Keywords: Sufi; keywords National Resistance; French occupier; the Algerian people.

مقدمة:

الانتماء للتيار الصوفي خلال القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشر الميلادي، لم يكن هروبا من واقع الحياة فحسب، بل أيضا كان محاولة لمواجهة الحياة المتقلبة والمتغيرة، ومن هذا المنطلق استطاع كثير من أتباع هذا التيار الجمع بين جهاد النفس وجهاد العدو، ولم يكن تفرغهم للعبادة وحدها، بل كان لبعضهم مشاركته الميدانية ضد السلطة الحاكمة قبل عام 1244هـ/1830م وبعده، وضحى كثير منهم بحياته، فضلا عن مساهماتهم في استنهاض الهمم وشحذ نفوس الجزائريين للجهاد، وقد أنيط ببعضهم مهام القيادة كالأمير عبد القادر.

وقد اكتسب هذا التيار خلال ذلك القرن مكانة هامة في المجتمع الجزائري نتيجة الخدمات التي قدمها له، فهو رفع لواء الجهاد ودخل معترك الصراع الحضاري والثقافي ضد المحتل الفرنسي، بترسيخ القيم الحضارية والأبعاد الروحية والدينية للشعب الجزائري، وسعى إلى تكوين أجيال متشبعة بالأخلاق الإسلامية ومتمسكة بالآداب والفضائل السامية، وفتح الطريق أمام طلبة العلم والمعرفة لينهلوا من مختلف العلوم والمعارف، فواجه بذلك مشروع المحتل الفرنسي الرامي إلى القضاء على مقومات الشعب الجزائري من دين ولغة وثقافة.

وعليه فإن المتأمل في تاريخ التيار الصوفي في الجزائر، إذا ما قارن بين الوضعية السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي كان عليها هذا التيار، قبل 1244هـ/1830م وما آل إليه حاله ووضعه مع العقد الأخير من القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشر الميلادي سيلمس عدة حقائق دالة على بداية ضعفه وفقدانه ـ ولو نسبيا وباختلاف طرقه ومناطق انتشاره ـ لأهميته وقيمته في الحياة العامة للجزائر، وهنا يطرح السؤال التالي: فيما تمثلت يا ترى مظاهر ذلك الضعف وما هي أسبابه ؟

1- مظاهر الضعف:

تتمحور مظاهر ضعف التيار الصوفي أواخر القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشر الميلادي حول معطيين يبينان تراجعا في النفوذ الذي كان يتمتع به، وهما:

1-1- تقلص نفوذه:

بعد أن استتب الأمر للاحتلال الفرنسي، قامت إدارته بالتخطيط لضرب مقومات الهوية الوطنية في محاولة منها لخلق واقع رافض للانتماء الحضاري العربي الإسلامي[1]، فقامت بهدم أغلب المساجد وأغلقت الباقي أو حولتها إلى كنائس وثكنات وإسطبلات ومستوصفات، ومقرات إدارية، فمدينة الجزائر لوحدها كان بها غداة الاحتلال الفرنسي لها سنة 1244هـ/1830م ما يزيد عن 160 مسجدا وزاوية، ولم يبقى منها أواخر الفترة التي ندرسها سوى بضعة مساجد لا تصل حتى إلى عشرة[2].

كما قامت هذه الإدارة بتسليط العقاب على رجال الدين لاسيما شيوخ الزوايا والطرق الصوفية، الذين وقفوا في وجه المحتل وأبدوا مواقف بطولية، رافضين كل الرفض غطرسته وهمجيته، فخربت وهدمت زواياهم[3]، ووضعت حدا لنشاطهم الديني والثقافي، وسجنت بعضهم ونفت آخرين إلى مناطق نائية ومعزولة داخل الوطن وخارجه، وفرضت على أتباعهم مراقبة شديدة ودائمة، وأرغمت بعضهم على الجوسسة لصالح السلطة الأمنية الفرنسية[4].

وحتى أولئك الشيوخ الذين التزموا الحياد ولم ينخرطوا في صفوف المقاومة الوطنية، تعرض أغلبهم ـ إن لم نقل كلهم ـ إلى التضييق والمتابعة، وأصبحوا تحت المراقبة المشددة للإدارة الفرنسية[5]، التي لاحقتهم وتابعتهم قضائيا في كثير من الأحيان، بحجة إشرافهم وإنشائهم لمؤسسات دينية بدون ترخيص من السلطة الفرنسية، وهو ما كان سببا في مصادرة أملاكهم الوقفية كالأراضي الزراعية والمتاجر التي كانت تمول تلك المؤسسات[6].

وبعد ثورة 1285هـ/1871م اعتقدت سلطة الاحتلال الفرنسي أن شيوخ الزوايا والطرق الصوفية قد حلوا في الأهمية عند الأوساط الشعبية الجزائرية، محل الأجواد وزعماء العشائر نتيجة ضعف هؤلاء من جراء قانون الأرض سنة 1277هـ/1863م-1287هـ/1873م وما يعرف بعهد المملكة

---

(1) ناصر الدين سعيدوني، **الجزائر منطلقات وآفاق**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط.1، 2000، ص83.

(2) يحي بوعزيز، **موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب**، دار الهدى، عين مليلة ـ الجزائر، 2009، ج 1، ص.224

(3) ناصر الدين سعيدوني، **المرجع السابق**، ص.83

(4) يحي بوعزيز، **المرجع السابق**، ص.224

(5) ناصر الدين سعيدوني، **المرجع السابق**، ص84.

(6) يحي بوعزيز، **المرجع السابق**، ج 1، ص224.

العربية، وأن استقلال هؤلاء الشيوخ عن الإدارة الفرنسية ورفضهم العمل عندها، يعد خطرا كبيرا ويجعلهم محل الشك والريبة في ولائهم لها[1].

ولذلك قررت هذه السلطة مراقبتهم عن قرب، وعن كثب بالتحكم في مداخيلهم المادية، ومنعهم من التنقل أو جمع الصدقات وأموال الزيارات إلا بترخيص منها، والغرض من ذلك هو إشعارهم بتبعيتهم لها، وللحصول على هذا الترخيص لابد على هؤلاء الشيوخ أن يتقدموا بطلب إلى الجهات المعنية، يذكرون فيه الهدف من الزيارة بدقة تامة، ويحددون خط السير مع التزامهم بضرورة المرور بالجزائر العاصمة[2]، وتتولى هذه الجهات بدورها النظر في هذا الطلب ثم تبدي رأيها بالموافقة أو الرفض، وغالبا ما تكون الإجابة بالرفض لاسيما إن كان صاحب الطلب من غير المقربين من السلطة، أو من المشكوك في أمرهم ونواياهم.

كما أن هناك أطراف أخرى قد تتدخل وتمنع السلطة من منح الترخيص، مثلما حدث مع الحاكم العام شانزي Chanzy سنة 1292هـ/1878م حينما ضغط عليه نواب الكولون ومنعوه من إعطاء الامتيازات لشيوخ الزوايا والطرق الصوفية، عدا شيخ الطريقة التجانية بزاوية تماسين الذي تقرر إعفاؤه دون غيره من هذا المنع، بدعوى أن نفوذه وتأثيره يخدم القضية الفرنسية في الجزائر وخارجها[3].

ومع هذا التضييق والتشديد ومنع جمع الزيارات كان من الطبيعي جدا أن نجد أغلب الشيوخ، يلجئون إلى طرق وحيل خفية للإفلات من رقابة الإدارة، والقيام بعملية جمع الأموال والصدقات، وإن كانت هذه الطرق والحيل في أغلبها مكشوفة ومعلومة لدى سلطة الاحتلال، التي تغض الطرف وتتسامح في بعض الأحيان[4]، لاسيما مع من لا يثيرون حفيظتها ولا يشكلون عليها خطرا.

وقد لعب الجواسيس دورا كبيرا في كشف تلك الأساليب والحيل الخفية التي كان يستعملها من يجمع الزيارات من دون ترخيص، وكمثال على ذلك نجد أن في سنة 1313هـ/1899م، قام المسمى أحمد بن الحاج إبراهيم الشابي المقيم في توزر بتونس، بإخطار الحاكم العسكري الفرنسي في خنشلة بالجزائر عن قدوم المسمى عمار بن عمارة الشابي من توزر بتونس إلى جبال ششار بخنشلة، بغرض جمع الزيارات بلا تسريح ـ بلا رخصة ـ وهذا بأمر من المسمى سي سعيد بن عمار، لأن هذا الأخير صدر

---

(1) أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، دار البصائر، الجزائر، ط.6، 2009، ج 4، ص-ص325-326.

(2) أبو القاسم سعد الله، **المرجع السابق**، ج4، ص.326.

(3) شارل روبير أجرون، **المرجع السابق**، ص ص.563-564.

(4) نفسه، ص.563

في حقه أمر من قبل السلطات الفرنسية بعدم دخوله إلى عمالة قسنطينة، وهو ما جعله يرسل مكانه عمار بن عمارة الشابي[1].

أما الشيوخ الذين تربطهم علاقات جيدة بالسلطة الفرنسية، ويحسنون بها الظن ويعتقدون أنها ستوافق على طلبهم وترخص لهم بجمع الزيارات، فكانوا يتقدمون بطلبهم وينتظرون الموافقة مثلما فعل أحمد بن محمد بن أحمد التجاني شيخ زاوية عين ماضي الذي بعث برسالة سنة 1294هـ/1880م إلى الحاكم العسكري الفرنسي بالمدية، يعلمه فيها أنه طلب من الضابط السامي في الأغواط الترخيص له لبعث ثلاثة أشخاص من أحباب طريقته لكي يقوموا بجمع غلة أملاك الزاوية[2]، وكذلك فعل أحمد بن عمر بن علي بن عمر أخ شيخ زاوية طولقة وتقدم بطلب إلى الحاكم العام الفرنسي بمدينة الجزائر سنة 1302هـ/1888م، لكي يرخص لابنه لزيارة أعراش الجلفة والأغواط، ويذكره بأنه وعائلته خدام الدولة الفرنسية ومحسوبين عليها[3]، ونعتقد أن في هذا التذكير نوع من الاستعطاف حتى يوافق على طلبه ولا يرفضه.

وقد ألحقت هذه السياسة الاستعمارية المتشددة اتجاه أتباع التيار الصوفي، أضرارا مادية جسيمة ومعتبرة بأغلب شيوخ الزوايا والطرق الصوفية إلى درجة أضحى بعضهم غير قادر على تلبية متطلباته المعيشية، مما اضطره إلى رهن أملاكه، وبذلك يكون قد فقد سنده المادي الذي هو مصدر نفوذه لدى أتباعه الذين لم تعد لهم معه زيارات دورية، مما أدى بمرور الوقت إلى فتور العلاقة بين الطرفين، وتسبب في تسيب الأتباع وتشتتهم بعد ضعف الرابطة الروحية التي كانت تجمع بينهما[4].

1-2- تراجع قاعدته الشعبية:

الإحصائيات التي قدمها كل من لويس رين Louis Rinn سنة 1298هـ/1884م وديبون Depont وكوبولاني Coppolani سنة 1311هـ/1897م تشير إلى أن عقد الثمانينات والتسعينات من القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشر الميلادي، قد شهد نموا سريعا في عدد الزوايا والمقدمين

---

(1) A.O.M (G.G.A) 16H3.

(2) A.O.M (G.G.A) 16H49.

(3) A.O.M (G.G.A) 16H60.

(4) التليلي العجيلي، **الطرق الصوفية والاستعمار الفرنسي بالبلاد التونسية (1881 ـ 1939)**، منشورات كلية الآداب بمنوبة، جامعة تونس1، 1992، ص245.

والأتباع[1]، وهذا غير مستبعد لأن الطرق الصوفية وزواياها كانت تمثل في تلك الفترة مركزا دينيا متكاملا، تنبثق منها التوجيهات المؤطرة والمنظمة للحياة العامة للأهالي الذين ازدادت ثقتهم بهذه الزوايا، وازداد تمسكهم بها، وكانوا يقدمون لها الهبات والصدقات والمساعدات، وفي المقابل كانوا ينتظرون منها ومن شيوخها الحلول التي تخرجهم وتنجيهم من الأوضاع المزرية التي كان يعيشونها في شتى المجالات،وفي مختلف نواحي الحياة[2]، وعليه فإن هذا النمو السريع يعد منطقي وطبيعي.

إلا أن بعض الدراسات التي اهتمت بالموضوع أشارت إلى عكس ما ورد في الإحصائيات السابقة، فمثلا شارل روبير أجرون Charles Robert Ageron يقول: (ولقد أفضى إحصاء سنة [1309هـ]1895م إلى أرقام لم تقدم بصفة ملائمة: 295.189 مريد أو عضو منتظم منهم 221.141 إخوان و27.172 امرأة. وإذا نظرنا إلى عدد الرجال من الأعضاء المسجلين فإننا نحصل على نسبة 5.92% من عدد السكان المسلمين الإجمالي. ويمكن أن نأخذ هذه النسبة مأخذ الجد بما أنها لم تتغير إلى غاية [1353هـ]1939م بل إلى غاية [1364هـ]1950 حسب بعض المعلومات 489.000 عضو أي نسبة 5.78% من مجموع السكان. وهكذا، إذن لم تعرف حركة الإسلام الطرقي أي تطور منذ سنة [1294هـ]1880م بخلاف ما كان يظنه بعض الإداريين)[3].

بل إن لويس رين Louis Rinn ذاته أشار إلى أن دائرة تيارت (تيهرت) كانت في سنة 1265هـ/1851م تضم 2325 من الإخوان التابعين للطرق الصوفية، أما في سنة 1296هـ/1882م، فلا يوجد منهم سوى 578 إخوانيا[4]. كما أن جل المعطيات توحي أن عدد الإخوان أو الأتباع المنتمين للطرق الصوفية لابد أن يكون قد تناقص أواخر القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشر ميلادي، أو على الأقل خلال العقد الأخير منه.

---

(1) Louis Rinn, **Marabouts et Khouan étude Sur L'islam en Algérie**, Adolphe Jourdan, Alger, 1884, p.549 ; Octave Depont et Xavier Coppolani, **Les Confréries Religieuses Musulmanes en Algérie**, Adolphe Jourdan, Alger, 1897, Introduction.

(2) سعيدي مزيان، **السياسة الاستعمارية الفرنسية في منطقة القبائل ومواقف السكان منها (1871هـ – 1914م)**، دار سنجاق الدين للنشر والتوزيع، د.ب، ط.1، 1431هـ/2010م، ج2، ص ص248-249.

(3) شارل روبير أجرون، **تاريخ الجزائر المعاصرة من انتفاضة 1871 إلى اندلاع حرب التحرير1954**، ترجمة جمال فاطمي وآخرون، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط.1، 2008، ج2، ص ص.280-281.

(4) Louis Rinn, **Op.Cit**, p19.

فبانتهاء ثورة المقراني سنة 1285هـ/1871م وما أعقبها من تطبيق مجحف لقانون الأهالي التعسفي (كود الأنديجينا Code de L'indigenat) الذي استبدلت به إدارة الاحتلال الفرنسي تنظيم المكاتب العربية، مما ألحق أضرارا كبيرة لاسيما بسكان المناطق النائية والأرياف في الشرق الجزائري، وعمل على تفكيك بنيتهم الاجتماعية وهياكلهم الاقتصادية[1]، أصبح من الواضح جدا أن التيار الصوفي لم تعد له قوة المقاومة والصلابة التي تمتع بها عدة سنين، ولم يعد يشكل خطرا على السلطة الفرنسية، لأن الطرق الصوفية الممثلة لهذا التيار أضحت غير قادرة على الثورة الجماعية، وإذا كان بمقدور بعض هذه الطرق أن تتوحد وتثور وتتصدى للمحتل في وقت ما من الأوقات، فإنها مع نهاية القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشر الميلادي، تشتت وتبعثرت جهودها وقد حل التنافس بينها محل التفاهم والتآزر والاتحاد، وتغلبت المصالح الشخصية والمادية عند أغلب شيوخها على مصالح الطريقة، وهذا ما تسبب في تشتت وتفرع معظم الطرق الكبيرة إلى عدة فروع، وأدى إلى ضعفها وتراجع قاعدتها الشعبية.

فالطريقة الرحمانية التي قادت عدة ثورات ازدادت شهرتها وتعالى صيتها وتعاظم شأنها بين الأهالي بعد ثورة 1285هـ/1871م، لكنها ما لبثت أن انقسمت بعد ذلك على نفسها وتفرعت إلى عدة فرق وشيع[2]، فقد قال عنها ديبون Depont وكوبولاني Coppolani أن عدد مريدها يبلغ 160.000 منقسمين إلى ما يزيد عن 25 فرعا، وهي قوة عظمى، لكن بما أنها لا تملك قيادة موحدة فهي أصبحت تتلاشى شيئا فشيئا، وسينتهي أمرها إلى الزوال أجلا أو عاجلا[3].

كما لا ننسى أن طرق أخرى كالتجانية فضلت منذ الوهلة الأولى أن ترتمي في أحضان المحتل الفرنسي وتقف في صفه، لتلتحق بها مع أواخر ذلك القرن طرق أخرى أو بعض فروعها التي كانت بالأمس القريب تحسب على تيار المقاومة والممانعة، وهذا ما أثر سلبا على هذه الطرق وأدى إلى تراجع قاعدتها الشعبية التي فقدت ثقتها فيها، فقد لاحظ لويس رين Louis Rinn أن الطرق الصوفية التي

---

[1] ناصر الدين سعيدوني، **الشرق الجزائري (بايلك قسنطينة أثناء العهد العثماني وبدايةالا حتلال الفرنسي من خلال وثائق الأرشيف)**، تقديم وتعليق وترجمة ناصر الدين سعيدوني، البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ص140.

[2] شارل روبير أجرون، **المرجع السابق**، ج 1، ص921.

[3] Octave Depont et Xavier Coppolani, **Op.Cit**, p, p247-412.

تحالفت مع فرنسا ظلت بدون تطور، وفقدت حيويتها وانخفض عدد أتباعها لأن الخدمات التي قدمها رؤساؤها للفرنسيين قد أضرت بهم لدى المخلصين من قومهم[1].

وكان ابن علي الشريف شيخ زاوية شلاطة القادرية[2]، قد انساق وراء الفرنسيين وخضع لهم فانحط قدره نتيجة ذلك لدرجة أن نفوذه كان يتناقص من سنة إلى أخرى، وضاعت هيبته، وتفرق أتباعه، فتضاءلت بذلك الموارد المالية التي كانت تدرها عليه صدقاتهم[3].

ولا يخفى علينا أن معظم هذه الطرق طبق عليها الحصار وضيق عليها الخناق ـ كما رأينا سابقا ـ وحرمت من مواردها المالية كالزيارات، التي تعد من أهم عوامل قوتها ونفوذها، كما تم أيضا حضر الاتصالات الدورية بين شيوخها وأتباعهم، وليس من المعقول والحال هاته أن يزداد أعداد أتباعها، لاسيما بعد أن أصبحت هذه الطرق غير قادرة على تلبية حاجيتها الخاصة، واتضح أنها عاجزة عن ايجاد الحلول التي انتظرها منها أغلب الجزائريين، مما قد يكون خيب آمالهم فيها وجعل بعضهم يصرف النظر عنها وعن الارتباط بها، ويفكر في الهجرة إلى خارج الوطن، وربما هذا ما يفسر زيادة عدد المهاجرين الذين غادروا أرض الوطن عقب ثورة 1285هـ/1871م وتفرقوا على مختلف البلدان العربية، لاسيما المشرقية منها، فعلى سبيل المثال استقبلت بلاد الشام في الفترة الممتدة من 1285هـ/1871م إلى 1314هـ/1900م عدد كبير من العائلات والأسر الجزائرية التي هاجرت من مناطق بجاية والبويرة وتيزي وزو، وكذلك من مناطق الشاوية في جبال الأوراس، وجبل سيدي رغيس وغيرها والتحقت بمن سبقها في سيل الهجرة منذ 1261هـ/1847م [4].

والشيء الذي لفت انتباهنا في هذه الهجرة هو أن المناطق التي هاجرت منها هذه العائلات والأسر، هي مناطق انتشار الطريقة الرحمانية والطريقة القادرية، وهذا ما يعني أن هاتين الطريقتين وهما من أكبر وأقوى الطرق الصوفية في الجزائر، وقد تزعمتا المقاومة الوطنية ضد المحتل الفرنسي خلال القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشر الميلادي، قد تأثرتا سلبا من هذه الهجرة التي تسببت لا محال في تراجع أعداد أتباعهما.

---

[1] Louis Rinn, **Op.Cit**, p.19.

[2] سعيدي مزيان، **المرجع السابق**، ج.2، ص250.

[3] شارل أندري جوليان، **تاريخ الجزائر المعاصرة الغزو وبدايات الاستعمار 1827-1871**، ترجمة جمال فاطمي وآخرون، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط.1، 2008، ج1، ص806.

[4] سهيل الخالدي، **الجزائر وبلاد الشام (صفحات من النضال المشترك ضد الاحتلال)**، منشورات الحضارة، الجزائر، ط.1، 2013، ص152.

ولا ننسى أن الجزائر تعرضت خلال الفترة الممتدة من 1275هـ/1861م إلى 1308هـ/1894م إلى عدة أمراض وأوبئة خطيرة ومعدية، حصدت أرواحا كثيرة من الجزائريين، وكمثال على ذلك وباء التيفوس الذي ضرب بشدة خلال هذه الفترة وعانى منه سكان الساحل والهضاب من الشرق إلى الغرب، وصاحبه مرض الجدري الذي أصاب سكان قسنطينة ومعسكر ودلس وبني سليم في الفترة الممتدة من 1279هـ/1865م إلى 1294هـ/1877م[1]، ومن المؤكد أن الضحايا كانوا من أتباع الطرق الصوفية ومن غيرهم، لاسيما وأن بؤر انتشار هذه الأمراض والأوبئة غالبا ما كانت هي المناطق الريفية والنائية التي تعتبر معقلا لهذه الطرق، وهذا ما يعني مرة أخرى أن عدد الإخوان والمريدين كان يتناقص بمرور الوقت.

ويمكن القول أن جل المعطيات التاريخية تشير بما لا يدع مجالا للشك إلى أن القاعدة الشعبية للتيار الصوفي، كانت في تراجع مستمر أواخر القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشر الميلادي، وازدادت وتيرة هذا التراجع مع حلول العقد الأخير من هذا القرن، وهذا ما يعني أن هذا التيار قد دخل آنذاك مرحلة الضعف والتقهقر، وما هذه المعطيات والمؤشرات إلا مظهر من مظاهر هذا الضعف والوهن الذي أصابه.

ونحن بدورنا نرجح أن يكون هذا هو حال أغلب الطرق الصوفية في تلك الفترة لاسيما وأن الجزائر حينها كانت تشهد إرهاصات تغير العقليات، وإقبال المجتمع على تطورات جديدة لا عهد له بها، حيث لا يمكن لأتباع التيار الصوفي أن يقفوا في وجهها أو يتصدوا لها.

2- أسباب الضعف:

وهي كثيرة ومتنوعة، ولا يمكن إرجاعها كلها إلى الأوضاع الاجتماعية والسياسية التي كانت تعيشها الجزائر في ظل الاحتلال الفرنسي وهي عوامل خارجية، وإنما ترجع أيضا إلى خصائص تتعلق بالتيار الصوفي ذاته، بالإضافة إلى بعض المستجدات التي طرأت عليه، وهي كلها عوامل داخلية:

2-1- الأسباب الخارجية:

ونقصد بها تلك التي تخرج عن نطاق التيار الصوفي، وتعود إلى أطراف خارجية وبالدرجة الأولى إلى سلطة الاحتلال الفرنسي. ويمكن حصر تلك الأسباب في ما يلي:

2-1-1- توظيف الطرق الصوفية وتدجينها:

---

[1] فلة موساوي القشاعي، **الواقع الصحي والسكاني في الجزائر أثناء العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي 1518 - 1871**، منشورات بن سنان، الجزائر، 2013، ص ص212 – 262.

لقد أدركت السلطة الفرنسية بعد مرور أربعة عقود من احتلالها للجزائر، أن رؤساء وشيوخ الطرق الصوفية قد حلوا في الأهمية محل الأجواد وزعماء العشائر، نتيجة ضعف هؤلاء من جراء قانون الأرض سنة 1277هـ/1863م-1287هـ/1873م وما يعرف بعهد المملكة العربية[1]، وأن الطرق التي تعرضت للتنكيل والاضطهاد كالطريقة الرحمانية والدرقاوية لم تتأثر كثيرا ولم تختفي من حياة الجزائريين كما كانت تنتظر وتعتقد، وهذا ما جعل جول كامبون Jules Cambon الذي عين في منصب حاكم عام للجزائر سنة 1305هـ/1891م، يقرر خلال فترة حكمه التي دامت ست سنوات ونصف، إتباع سياسة التهدئة مع الطرق المصنفة عدوة والتقرب منها، والعمل على استمالة زعمائها وشيوخها[2]، لاسيما وأن هذه السياسة قد نجحت مع بعض الطرق خلال العقد الثاني من الاحتلال.

فقد تمكنت السلطة الفرنسية من استمالة محمد الصغير التجاني شيخ الطريقة التجانية سنة 1258هـ/1844م[3]، وسي محمد بن سيدي بن عباس شيخ الزاوية القادرية بمنعة في جبال الأوراس سنة 1259هـ/1845م، الذي عينته في منصب القايد[4]، وأصبح بذلك يجمع بين وظيفتين إحداهما دينية صوفية والأخرى إدارية دنيوية، كما تمكنت أيضا من استمالة سيدي حمزة أو سي حمزة ـ كما يعرف ـ كبير أولاد سيدي الشيخ، وقلدته وظيفة خليفة سنة 1264هـ/1850م[5]، وأصبح بذلك من أوائل زعماء التيار الصوفي الذين يتقلدون وظيفة رسمية لدى السلطة الفرنسية، واستمالت أيضا سي عزيز بن الشيخ الحداد وقلدته وظيفة إدارية ومنحته وساما فكان يحمل السبحة في عنقه والوسام على صدره[6]، وهذا قبل أن ينقلب على هذه السلطة وينظم إلى صفوف المجاهدين أثناء ثورة المقراني سنة 1285هـ/1871م.

حاول جول كامبون Jules Cambon جاهدا ربط علاقات ودية مع أكبر الطرق الصوفية في الجنوب الجزائري، كالطريقة الطيبية والشيخية والقادرية، فبادر منذ سنة 1305هـ/1891م إلى

---

(1) أبو القاسم سعد الله، **المرجع السابق**، ج4، ص ص.325-326.

(2) أبو القاسم سعد الله، **المرجع السابق**، ج4، ص ص.327-328.

(3) إبراهيم مياسي، **الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية 1837-1934**، دار هومة، الجزائر،2005، ص ص.102-103.

(4) Abd Elhamid Zouzou, **op.cit**, T.1, p.219

(5) س. ترومليي، **الفرنسيون في الصحراء**، ترجمة محمد المعراجي، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحوث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، غرناطة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ص121.

(6) Charles- André Julien, **Histoire de L'Algérie Contemporaine**, Presse Universitaire de France, Paris, 1964, T01, p384.

استضافة شيخ الزاوية الطيبية، مولاي عبد السلام وابنه مولاي العربي، كما تمكن سنة 1306هـ/1892م من التحالف مع سيدي قدور زعيم أولاد سيدي الشيخ المنشقين[1]، وتفاوض مع الشيخ بوعمامة وهو من أولاد سيدي الشيخ، وعرض الوظائف على أغلب زعماء الطرق الصوفية لاسيما الدرقاوية والرحمانية، وسلم لرؤساء هذه الطرق وغيرها برانيس وأوسمة، وحرص على إقامة احتفالات تأبينية لمن يموت منهم كالذي أقامه لسيدي أحمد التجاني والشيخ سيدي محمد بن أبي القاسم الهاملي[2]، وفي الكلمة التأبينية التي ألقاها في الحفل التأبيني لسيدي أحمد التجاني، نوه بإخلاص هذا الأخير للدولة الفرنسية ووقوفه إلى جانبها، كما نوه بالطريقة التجانية عامة التي لم ينقطع إخلاصها ـ على حد تعبيره ـ لفرنسا[3].

-1-2- الجوسسة على الطرق الصوفية:

لقد جندت السلطة الفرنسية الجوسسة منذ وقت مبكر لتحقيق مآربها، فنشطت مخابراتها نشاطا ملحوظا لاسيما على عهد بيجو Bugeaud أين أصبحت المكاتب العربية عبارة عن خلايا جوسسة تتلقى التقارير، وتتسمع في الأسواق وغيرها من الأماكن العامة على الجزائريين وتلتقط أسرار وتحركات رجال المقاومة الوطنية، وتحاول معرفة كلمات السر عندهم وعند الطرق الصوفية[4]، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل استطاعت هذه السلطة أن تزرع جواسيسها في صفوف بعض الطرق فكانوا ينقلون لها كل كبيرة وصغيرة عنها، وعن ما يدور في مجالسها.

فقد اخترقت صفوف الأمير عبد القادر وزرعت جاسوسها ليون روش Léon Roches الذي تظاهر باعتناقه للدين الإسلامي، وادعى أن مسلمي الجزائر قد أطلقوا عليه اسم عمر، وكان ينقل لها من معسكر الأمير عبد القادر أسراره العسكرية والإستراتيجية، بل وأسراره الشخصية أيضا[5]، وتمكنت وتمكنت أيضا من إيقاع بعض شيوخ الطرق الصوفية في زيجات الزواج من الفرنسيات اللواتي أصبحن بمثابة أعينها على هؤلاء الشيوخ، وعلى طرقهم ومريديهم.

---

[1] شارل روبير أجرون، **المرجع السابق**، ج1، ص918.

[2] أبو القاسم سعد الله، **المرجع السابق**، ج 4، ص.328

[3] A.O.M (G.G.A) 16H49.

[4] أبو القاسم سعد الله، **الحركة الوطنية الجزائرية**، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، ط.6، 2009، ج1، ج1، ص ص.235-236

[5] يوسف مناصرية، **مهمة ليون روش في الجزائر والمغرب 1832 – 1847**، المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار، رويبة ـ الجزائر، ط.خ، 2007، ص ص.26-27.

وكان جواسيس السلطة الفرنسية ينتشرون في كل المناطق والبقاع بما في ذلك الدول المجاورة كالمغرب وتونس، وكانوا يمدونها بكل المعلومات عن تحركات أتباع الطرق الصوفية في هذه البلدان، وعن علاقاتهم بإخوانهم وأتباعهم في الجزائر، وكانت التقارير تصل بصورة دورية إلى رؤساء المكاتب العربية وممثلي السلطة الفرنسية هنا في الجزائر من قبل هؤلاء الجواسيس، الذين هم في أغلبهم من أتباع بعض الطرق الصوفية كالشابية[1].

والأرشيف الفرنسي بمدينة مارسيليا يحتفظ لنا بعدد هائل من هذه التقارير التي نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، التقرير الذي بعث به سنة 1313هـ/1899م المسمى أحمد بن محمد الشابي إلى الحاكم العسكري بعمالة قسنطينة، ويتضمن معلومات عن شخص يبدو أنه من أتباع الطريقة الشابية يدعى الحاج محمد بن إبراهيم الشابي، وهو من توزر الجريد بتونس، وهذه المعلومات تتحدث عن سفر هذا الشخص في تلك الفترة من مقر سكناه بتوزر إلى وادي سوف في الجنوب الجزائري، بقصد أخذ الزيارات وإعطاء الأوراد، وبعد ذلك يتوجه إلى جبال ششو في خنشلة، وإلى عرش النمامشة في تبسة لذات الغرض وهو مرفوق بمقدمين وشواش ليعطوا الطريقة، ويضربون وراءه البندير ويتجمع حوله الناس، فيلقي عليهم الأخبار غير اللائقة ويخوض معهم في أمور الديانة، وقد جعل خراجا على الأعراش المذكورة سابقا يستخلصه منهم كل سنة[2].

وهناك أيضا تقرير آخر بعث به المدعو بنجد بن الحاج الشابي مقدم الطريقة الشابية في توزر بتونس ـ كما ورد في التقرير ـ إلى الحاكم العسكري الفرنسي بعمالة قسنطينة، يطلعه فيه عن دخول نفر من توزر إلى جبل ششو في خنشلة بالجزائر، ويطلب منه أن يعتقلهم ويسجنهم كما وعده أثناء اللقاء الذي جمعهما في سوق أهراس بالجزائر. وهؤلاء النفر هم: سعيد بن عمار الشابي، محمد بن بلقاسم الشابي، بلقاسم بن حامد الشابي، بورقعة بن سعيد الشابي[3].

2-1-3- مراقبة الزوايا وتضييق الخناق عليها:

لقد تفطن خبراء الاحتلال الفرنسي منذ وقت مبكر لدور الزوايا في المقاومة الوطنية، وأدركوا أهميتها الكبرى في تأجيج الانتفاضات والثورات ضد السلطة الفرنسية، حيث كلفت اللجنة العلمية حول المقاومة الجزائرية أحد أعضائها وهو النقيب إدوارد دونوفو Edward de noveu بدراسة تنظيم

---

[1] كان أتباع الطريقة الشابية الذين وظفتهم السلطة الفرنسية كجواسيس لصالحها يقدمون معلومات في بالغ الأهمية عن إخوانهم في الطريقة التي ينتمون إليها.

[2] A.O.M (G.G.A) 16H3.

[3] A.O.M (G.G.A) 16H3.

الزوايا والطرقية[1]، وقد توصل في بحثه الذي نشره سنة 1259هـ/1845م بعنوان الإخوان Khouans إلى أن الزوايا هي مراكز للتآمر ـ حسب رأيه ـ وإشعال فتيل التمرد، وهي معادية للوجود الفرنسي وتحظى بكثير من الاحترام والتقدير بين الجزائريين[2]، وعليه رأت السلطة الفرنسية أن تضييق الخناق هو الوسيلة العملية للسيطرة عليها[3]، ومراقبتها وجمع أكبر قدر من المعلومات عن نشاطها الداخلي وعلاقتها بمحيطها المباشر[4].

ولتحقيق هذا الغرض طلبت هذه السلطة من جميع موظفيها المدنيين والعسكريين لاسيما ضباط المكاتب العربية، إفادتها بمعلومات عن هذه الزوايا تتضمن وصف لها واثبات صورتها، وتاريخ تأسيسها وهل تؤدي أيضا دور ووظيفة المدرسة، وهل فيها مسجد للصلاة، وهل هي مؤسسة اجتماعية للإحسان وإيواء الفقراء والمحتاجين، وعابري السبيل والضيوف. وأما شيوخها فلابد من تقديم جملة من البيانات والمعلومات عنهم تمس حتى العظم والمخ، تبدأ بمعلومات شخصية مع وصف دقيق لحياتهم ومؤهلاتهم وصفاتهم، وأملاكهم بالإضافة إلى صورهم، ثم يأتي بعد ذلك الإفصاح عن تأثيرهم الديني في الداخل والخارج[5]، ويمكن أن نستشهد هنا بذلك الملف الذي عثرنا عليه في أرشيف ما وراء البحار بمرسيليا، ويخص الزاوية القاسمية بالهامل وهو يتضمن معلومات جد دقيقة عن هذه الزاوية، وعن لالا زينب التي

تولت مشيختها من 1311هـ/1897م إلى 1318هـ/1904م بعد وفاة والدها المؤسس محمد بن أبي القاسم الهاملي، كما يتضمن الملف أيضا صورتين إحداهما للزاوية والأخرى للسيدة لالا زينب[6].

---

[1] محمد العربي ولد خليفة، **الجزائر المفكرة والتاريخية أبعاد ومعالم**، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، ص236.

[2] إدوارد دونوفو، **الإخوان دراسة إثنولوجية حول الجماعات الدينية عند مسلمي الجزائر**، ترجمة وتحقيق كمال فيلالي، شركة دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة ـ الجزائر، 2003، تقديم الكتاب، ص ص72-73.

[3] أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج4، ص.287.

[4] محمد العربي ولد خليفة، **المرجع السابق**، ص237.

[5] أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج4، صص.313-314.

[6] A.O.M (G.G.A) 16H61.

من يشاهد تلك الصورة الفوتوغرافية التي أخذتها السلطات الفرنسية للشيخة لالا زينب وهي جالسة في محل إقامتها وتمسك بسبحة في يدها اليمنى وبمروحة في يدها اليسرى، سيدرك أن هذه المرأة العالمة

ولم تكتف السلطة الفرنسية بهذه الإجراءات، بل قامت بمنع الزوايا من نشر التعليم العام، وفرضت عليها برنامج ضيق لا يتعدى تحفيظ القرآن الكريم دون تفسيره، أو تعليم قواعد اللغة وأصول الدين دون فهم، وأنشأت المدارس الفرنسية في المدن ثم الأرياف لتسحب التلاميذ من الزوايا[1]، كما فرضت على مدارس الزوايا المرخص لها بالتدريس أن لا تفتح أبوابها للتلاميذ خلال أوقات الدراسة الرسمية في المدارس الابتدائية الفرنسية[2]، وأكثر من ذلك اشترط مرسوم 18 أكتوبر 1306هـ/1892م الذي أدمج تعليم الزوايا في المدارس الابتدائية الفرنسية، أن يكون لكل زاوية سجل تسجل فيه أسماء التلاميذ وعائلاتهم، ومحل إقامتهم وتاريخ ميلادهم بنفس الطريقة التي تعمل بها المدارس الفرنسية[3].

لكن أخطر ما في الأمر أن هذه السلطة أصبحت تتدخل حتى في تعيين شيوخ بعض الزوايا، دون مراعاة الشروط العلمية والدينية التي يجب أن تتوفر فيمن يتولى مشيخة الزاوية[4]، وحتى أولئك الذين ينتخبهم أتباعهم أو يوصي بهم من سبقهم قبل وفاته، فلابد عليهم أن ينالوا موافقة ورضى هذه السلطة، وإلا سيصبحون من المغضوب عليهم، وقد لا يدوم بهم الحال طويلا في مناصبهم.

وعليه نجد أن إخوان الطريقة الحنصالية في قسنطينة، قد تقدموا سنة 1309هـ/1895م بطلب إلى السلطة الفرنسية لكي توافق على تعيين أحد إخوان الطريقة والمسمى ابن الشهب أحمد بن دحمان في منصب قيم على الزاوية الحنصالية بقسنطينة، خلفا للمسمى حبيباتني الطاهر بن الشهيب الذي بلغ به الكبر عتيا، ونال منه المرض وأصبح غير قادر على أداء مهامه في الزاوية[5].

وفي سنة 1310هـ/1896م توفي أحمد بن الكبير بوحجاجة شيخ الزاوية الكرزازية المتواجدة في الجنوب الغربي للجزائر، فبادر خليفته عبد الرحمان بن محمد بإخطار الجنرال الفرنسي حاكم العين

الجليلة ستظل راسخة في ذهنه وتتراءى أمام بصره بحدة نظرتها وقوة حظورها ومكانتها في المجتمع، وبلباسها الجزائري التقليدي الأصيل المستمد من الدين والتراث الإسلامي والموروث الصوفي.

(1) أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج 3، ص173.

(2) شارل روبير أجرون، **المرجع السابق**، ج 1، ص 569.

(3) أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج 3، ص.176.

(4) سعيدي مزيان، **المرجع السابق**، ج 2، ص 182.

(5) جميلة معاشي، **الحياة الاجتماعية والثقافية والدينية بقسنطينة من خلال سجل مراسلات لجنة الشؤون الدينية (1885 ـ 1904)**، منشورات بونة للبحوث والدراسات، عنابة ـ الجزائر، ط.1، 1433هـ/2012م، ص 129.

الصفراء بالوفاة وتوليه مشيخة الزاوية خلفا للمرحوم، وتعهد له بأن يبقى وفيا للفرنسيين وأن يتبع سيرة سلفه وسياسته معهم[1].

وقبل وفاة محمد بن أبي القاسم الهاملي شيخ زاوية الهامل، كانت السلطات الفرنسية تلح عليه لكي يقوم بتعيين خليفته، وكانت تقصد ابن أخيه الحاج محمد بن بلقاسم، وقد رضخ لطلبها تحت الضغوط وكتب وصية بعث بها إلى رئيس المكتب العربي في بوسعادة، تنص على أن ابن أخيه الحاج محمد هو خليفته، لكن ابنته لالا زينب اعترضت على هذه الوصية بعد وفاة والدها، وقالت إن السلطات الفرنسية قد استصدرتها من والدها تحت الضغوط، وهو في حالة لا يملك معها قواه، ودخلت في نزاع مع رئيس المكتب العربي، ومع ابن عمها إلا أنها استطاعت أن تنتصر عليهما في نهاية المطاف، وتتولى هي مشيخة الزاوية التي أدارتها بنجاح إلى غاية وفاتها سنة 1318هـ/1904م[2].

وقد سبق للسلطة الفرنسية أن مارست سياسة شد الخناق على رقبة شيوخ الزوايا منذ وقت مبكر ولم تميز في ذلك بين من هو عدو ومن هو صديق، فمثلا نجدها شددت المراقبة على الشيخ الشارف ولد الجيلاني عبد الله بن طكوك الذي كان يتولى مشيخة الزاوية السنوسية بمستغانم، وقامت باعتقاله عدة مرات، وسجنته عدة سنين كانت إحداها سنة 1290هـ/1876م بعد أن استولت على كل ما هو موجود في زاويته بحجة تورطه في عملية اغتيال، وتخزينه أسلحة داخل هذه الزاوية، لتتراجع فيما بعد وتقول أنه برئ دون محاكمة[3]، وقد كانت تفعل معه كل هذا لكونه ينتمي لطريقة تعتبرها هذه السلطة عدوة لها، وتشكل خطرا على كيانها.

لكن في الوقت ذاته نجد أن هذه السلطة قد قامت بفرض الإقامة الجبرية على حليفها من أولاد سيدي الشيخ الخليفة حمزة حامل بركة جده والشيوخ المتسلسلين منه، وقد كان موظفا عندها على مساحات شاسعة وقبائل كثيرة، وظل في الإقامة الجبرية بوهران إلى أن توفي، مما جعل زوجته وأولاده منها يتهمون هذه السلطة بقتله غدرا[4].

وقد فعلت الشيء نفسه مع شيوخ الزاوية التجانية في عين ماضي وهم حلفاؤها وأقرب المقربين إليها، فقد غضبت على سيدي أحمد التجاني وأخيه البشير بعد أن استقبلا في عين ماضي سنة 1283هـ/1869م زعماء ثورة أولاد سيدي الشيخ ومنهم الشيخ الأعلى، فاستدعتهما إلى العاصمة

---

(1) Louis Rinn, **Op.cit**, p-p.342-348 ; Octave Depont et Xavier Coppolani, **Op.cit**, p 502.

(2) أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، جـ4، ص 163.

(3) أبو القاسم سعد الله، **الحركة الوطنية الجزائرية**، ج1، ص325.

(4) أبو القاسم سعد الله، **الحركة الوطنية الجزائرية**، ج 1، ص 323.

وسجنتهما هناك ثم قامت بنفيهما إلى فرنسا سنة 1284هـ/1870م وفرضت عليهما الإقامة الجبرية في مدينة بوردو، ولم تسمح لهما بالعودة إلى الجزائر إلا في سنة 1286هـ/1872م بعد أن تزوج سيدي أحمد الفرنسية أويلي بيكار Aurélie Picard. ورغم اجتهاد سيدي أحمد وتفانيه في إظهار مودته للفرنسيين وتعاونه معهم، إلا أنه ظل محل شك لدى السلطة الفرنسية التي لم تصدق براءته، فاستدعته مرة ثانية إلى مدينة الجزائر للإقامة فيها بعض الوقت، بعد أن ظهرت إشاعة مفادها أنه متورط في ثورة الشيخ بوعمامة، لكن سرعان ما ثبت لهذه السلطة أنه بريء فأطلقت سراحه[1].

1-4- ضغضغة وحدة الطرق المقاومة:

بعد أن تمكنت السلطة الفرنسية من التغلغل إلى عمق الخلافات التي كانت سائدة بين مختلف الطرق الصوفية، واستغلتها وفرقت بينها بعد أن سلطت بعضها على بعض، وسمحت لها ببسط نفوذها بسخاء شريطة أن تقف إلى جانبها وتروج للمشروع الفرنسي في الجزائر[2]، انتهجت سياسة جديدة ضد هذه الطرق تقوم على تفتيتها وتشتيتها، وإضعافها والاستفادة منها دون إنهاء وجودها أو مواجهتها[3]، لذلك لجأت إلى ضغضغة وحدة كل طريقة تعتقد أنها خطيرة على وجودها، بجعلها تتفرع إلى فروع، وعدم تبعية فروعها إلى قيادة موحدة أو شيخ واحد تكون سلطة القرار في يده دون غيره سواء في الحرب أو السلم. وكان ذلك هو مصير أغلب الطرق التي رفعت راية المقاومة والجهاد في وجه المحتل بمجرد أن وطأت قدماه أرض الجزائر، لاسيما القادرية والدرقاوية والرحمانية[4].

وعليه شهد عقد الثمانينات والتسعينات من القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشر الميلادي نموا سريعا في عدد الزوايا المستقلة[5]، لاسيما التابعة للطريقة الرحمانية التي قال عنها المختصون الفرنسيون أنها قد تمزقت إلى 25 فرعا، لكل فرع شيخ مستقل لا يعترف بالآخر رغم الأصل الواحد

---

[1] أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، جـ4، صص، ص.212-213، 216

[2] Abd Ehhamid Zouzou, **L'Aurés au temps de La Fronce Coloniale (Evolution politique economique economique et sociale 1837 – 1939)**, Edition distribution Houma, Alger, 2é Edition, 2002, T.2, p, p.777, 779

[3] محمد الأمين بلغيث، **تاريخ الجزائر المعاصر (دراسات ووثائق)**، دار مدني للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص.307.

[4] أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج 4، ص.31.

[5] خير الدين شتره، **قضايا التصوف ومظاهر الصوفية وأبحاث عن نزعة الإصلاح وبعض أعلامه في الجزائر**، دار الصديق لنشر والتوزيع، سطيف، الجزائر، 2015، ج 1، ص390.

لجميع هذه الزوايا وهو زاوية آيت إسماعيل التي خربها الجيش الفرنسي سنة 1271هـ/1857م والمبادئ الواحدة. ومن هذه الفروع نذكر:

- فرع الهامل، وشيخه محمد بن أبي القاسم.
- فرع طولقة، وشيخه علي بن عثمان.
- فرع وادي العثمانية، وشيخه ابن الحملاوي.
- فرع أقبو، وشيخه محمد بن أبي القاسم البوجليلي.
- فرع نفطة (تونس)، وشيخه مصطفى بن عزوز البرجي.
- فرع وادي سوف، وشيخه سالم بن محمدالأعرج السالمي.
- فرع قسنطينة، وشيخه محمد السعيد باش تارزي.

إضافة إلى فروع أخرى كانت في خنقة سيدي ناجي، وخيران، وأتباع ابن طلحة في السمندو، وأتباع عمارة بوديلا بالناظور[1].

2-1-5- وقوف فئة من الكتاب والمؤرخين المحليين ضد بعض الطرق:

نعتقد أن من بين الأسباب الخارجية التي أدت إلى إضعاف التيار الصوفي أواخر القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشر الميلادي، هووقوف فئة من الكتاب والمؤرخين الجزائريين في تلك الفترة ضد بعض الطرق التابعة لهذا التيار، أو ضد زعمائها وانتقادهم لأعمالهم الثورية، ونذكر من بين هؤلاء الآغا بن عودة المزاري صاحب كتاب طلوع سعد السعود، الذي وقف ضد الأمير عبد القادر وانتقد مقاومته[2].

كما نذكر أيضا الشيخ أحمد بن عبد الرحمان الشقراوي الراشدي، صاحب الكتيب الصغير(القول الأوسط في أخبار بعض من حل بالمغرب الأوسط) الذي اتخذ موقفا سلبيا من الشيخ بوعمامة ومن ثورته واعتبر ما قام به هذا الأخير مجرد مناورة من أجل بلوغ الرياسة والسيادة لا أكثر،

---

[1] Octave Depont et Xavier Coppolani, **Op.cit**, p.247

[2] أحمد بن عبد الرحمان الشقراني الراشدي، **القول الأوسط في أخبار بعض من حل بالمغرب الأوسط**، تحقيق وتقديم ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، ط.1، 1991، ص-ص.18-26

كما وصفه بالسفيه الجاهل الخارج عن تعاليم الدين الإسلامي، وحمله المسؤولية الكاملة عن كل المصائب التي ابتليت بها الجهة الغربية بسبب ثورته على الفرنسيين[1].

لاشك أن مؤلفات هؤلاء المؤرخين التي أبدو فيها مواقفهم السلبية من بعض زعماء التيار الصوفي وتيار المقاومة الوطنية، قد أثرت في عقول وأفكار من اطلع عليها في تلك الفترة، أو على الأقل جزء منهم وجعلتهم يتبنونها، أو يقررون النأي بأنفسهم عن الانخراط في الطرق التي يمثلها أولئك الزعماء.

كما أن مواقف هؤلاء المؤرخين جعلت بعض الباحثين المعاصرين يتساءلون لصالح من كتبوا مؤلفاتهم ورسائلهم ؟ فعلى سبيل المثال يتساءل محمد الأمين بلغيث لصالح من كتب الشقراني رسالته بهذه اللغة وبهذا الأسلوب الذي يحط من شأن أبناء جلدته ؟[2]

ويمكننا أن نجيب محمد الأمين بلغيث ونقول أن الشقراني كتب رسالته بالدرجة الأولى لأتباع الشيخ بوعمامة، وللشعب الجزائري حتى يثبط عزائمهم وينفرهم من الشيخ ومن مقاومته وطريقته الشيخية البوعمامية، وهذا يخدم في المقام الأول مصلحة الاحتلال الفرنسي.

2-2- الأسباب الداخلية:

والمراد بها تلك الأسباب التي تتعلق بالتيار الصوفي ذاته، أي أنه هو المسؤول عنها بالدرجة الأولى دون أن يكون لأي طرف خارجي دورا فيها، ويمكن حصرها في ما يلي:

2-2-1- تضارب الآراء والمصالح داخل الطريقة الواحدة:

تعد الخلافات والمشاحنات التي كانت تحدث بين شيوخ الطريقة الواحدة نتيجة تضارب آرائهم واختلاف مصالحهم الشخصية، أحد الأسباب الرئيسة التي ساهمت بشكل كبير في إضعاف هذه الطرق وتراجع دورها الريادي، وكمثال على هذه الخلافات والنزاعات التي كانت تحدث بين هؤلاء الشيوخ ما حدث بين شيخي الطريقة التجانية محمد البشير شيخ زاوية عين ماضي ومحمد لعروسي شيخ زاوية قمار وذلك عندما طالب الأول بنقل جثمان أخيه الشيخ أحمد التجاني الذي توفي سنة 1311هت/1897م بقمار ودفن بزاويتها، غير أن الشيخ محمد لعروسي رفض هذا الطلب وعارض بشدة

---

[1] الآغا بن عودة المزاري، **طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر**، تحقيق ودراسة يحي بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، بيروت ـ لبنان، ط.1، 1990، جـ.2، ص-ص.210-217

[2] محمد الأمين بلغيث، **المرجع السابق**، ص.77

هذا الاقتراح، وقد سانده في موقفه هذا أحباب الطريقة في قمار، وأبناء الحاج علي شيخ زاوية تماسين التجانية الذين قاموا بدورهم بإرسال جواب إلى الشيخ محمد البشير ينصحونه فيه بضرورة العدول عن رأيه لما فيه من أضرار كثيرة ستعود عليه وعلى الطريقة بنتائج سلبية[1].

وقد امتد هذا الخلاف بين الطرفين إلى بقية أفراد العائلة، حيث تدخلت بنات سيدي أحمد التجاني وبنات سيدي محمد التجاني وعلى رأسهن لالا عويش، ولالا حلوم واتهمن صراحة في رسالة بعثن بها إلى قائد المكتب العربي بتقرت السيدة أوريلي بيكار Aurélie Picard أرملة المرحوم سيدي أحمد التجاني بأنها هي من تقف وراء هذه القضية[2]، كما أن محمد لعروسي بعث بدوره برسالة إلى هذا القائد يتهم فيها المدام ـ كما ورد في الرسالة ـ التي لم يذكر اسمها إلا أنه يقصد أوريلي بيكار Aurélie Picard أنها من تقف وراء هذه الفتنة وليس الشيخ محمد البشير[3]، أما السيدة أوريلي بيكار Aurélie Picard فقد بعثت برسالة إلى لالا عويش ولالا حلوم تبرئ فيها نفسها مما نسب أو ينسب إليها، وتقول أن الشيخ محمد البشير هو المتصرف بهذا الشأن[4].

وقد أخذ الخلاف بين الطرفين في هذه القضية منعطفا آخر حيث رفع كل طرف دعوى إلى السلطات الفرنسية يدعوها إلى التدخل والوقوف إلى جانبه[5]، وعلى ما يبدو أن السلطات الفرنسية تدخلت لصالح محمد البشير وأمرت محمد لعروسي بأن يسهل مهمته، ويسمح له بنقل جثمان أخيه[6]، وبالفعل فقد قام محمد البشير بنقل جثمان سيدي أحمد التجاني من زاوية قمار إلى زاوية عين ماضي دون أي مشاكل تذكر[7].

ونعتقد أن أرملة المرحوم سيدي أحمد التجاني السيدة أوريلي بيكار Aurélie Picard كان لها دور في هذه المسألة وذلك لسببين، أولهما أنها عاتبت من بعثت إليهما بجوابها ونقصد هنا لالا عويش ولالا حلوم على عدم مراعاتهما أحوال أولاد وبنات المرحوم الذين يذرفون الدموع على وفاة والدهم، وهم لا قدرة لهم على الذهاب دائما إلى وادي سوف لزيارة قبره، وبذلك هم أولى من أي أحد بجبر

---

(1) A.O.M (G.G.A) 16H45.

(2) A.O.M (G.G.A) 16H45.

(3) A.O.M (G.G.A) 16H45.

(4) A.O.M (G.G.A) 16H45.

(5) A.O.M (G.G.A) 16H45.

(6) أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج4، ص163.

(7) A.O.M (G.G.A) 16H45.

خواطرهم. ثانيهما انه من غير المعقول أن يتصرف سيدي محمد البشير هذا التصرف دون أن يستشير أرملة أخيه ويأخذ برأيها، كما لا نتصور أن تتدخل السلطات الفرنسية في هذا الأمر، وتوافق على طلب محمد البشير وتنحاز إلى صفه، وتطلب من الشيخ محمد لعروسي أن يسهل له مهمته، ويسمح له بنقل جثمان أخيه دون أن تستشير في ذلك أرملة المرحوم ذات الأصول الفرنسية أوريلي بيكار Aurélie Picard.

وفي الوقت ذاته الذي حدث فيه النزاع بين شيوخ الطريقة التجانية، نشب خلاف آخر في زاوية الهامل الرحمانية ببوسعادة على إثر وفاة شيخها محمد بن أبي القاسم الهاملي بين لالا زينب بنت الشيخ المرحوم وابن عمها الحاج محمد بن بلقاسم، وهذا الخلاف كان على منصب مشيخة الزاوية حيث كان كل واحد منهما يدعي أحقيته بهذا المنصب، وقد امتد هذا الخلاف إلى أتباع الزاوية[1]، مما جعلها تمر بمرحلة انتقالية كادت أن تؤدي بها إلى الانقسام على نفسها والتفرع إلى زوايا صغيرة.

قد أصبح بعض الشيوخ لا يقدمون المساعدة لمن يستنجد أو يستغيث بهم، حتى وإن كان من أتباع طريقتهم إلا عن طريق المقايضة، وهذا ما لاحظناه واستنتجناه من ذلك الجواب الذي بعث به الشيخ معمر بن علي التجاني شيخ زاوية تماسين سنة 1298هـ/1884م إلى سيدي محمد بن المطماطية شيخ الزاوية التجانية بقسنطينة، حيث يبدو أن هذا الأخير وقع في ضائقة مالية، فطلب العون من الشيخ معمر بن علي التجاني، غير أن هذا الأخير اشترط عليه أن تكون الإعانة التي سيقدمها له موثقة بعقد يسمح له بالاستيلاء على الزاوية في حالة ما لم يتمكن محمد بن المطماطية من تسديد ما عليه من مستحقات، ويصبح هذا الأخير ومن بعده ورثته مسيرين للزاوية فحسب لا متصرفين في شؤونها[2].

نعتقد أن الشيخ معمر بن علي التجاني أراد أن يستحوذ على زاوية قسنطينة ويجعلها تابعة روحيا وسياسيا وإداريا واقتصاديا لزاوية تماسين وفرعا لها، حتى وإن كان تظاهر في رسالته أنه لا يهدف إلى الاستيلاء على هذه الزاوية، ولا على أحبابها أو مداخيلها من الزيارات، لأنه لو لم يكن يهدف إلى ما ذكرناه هنا لما اشترط على محمد بن المطماطيه مثل هذا الشرط الذي سيصبح بلا معنى ولا قيمة إن كان لا يجسد على أرض الواقع.

2-2-2- الانحراف عن مبادئ الطريقة وتعاليم الدين الإسلامي:

---

[1] أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج 4، ص163.

[2] A.O.M (G.G.A) 16H45.

في أواخر القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشر الميلادي، آل أمر أغلب الطرق والزوايا إلى شيوخ انحرفوا بها عن مبادئ الطريقة التي يمثلونها وعن تعاليم الدين الإسلامي، واتصفوا بأوصاف الربوبية فهم الذين يهبون ويمنحون ويرزقون، وهم الذين يمنعون ويقبضون ويبسطون، وهم منبع كل خير ومصدر كل شر[1]، وأصبحوا يحصرون الولاية في من كان على شاكلتهم ومن ذريتهم ولو كان حظه من التعليم قليلا أو منعدما، وهذا ما جعلهم يترفعون عن التكاليف الشرعية، ويرخصون لأتباعهم في اتباع أهوائهم، ويضمنون الجنة لمن صدق في خدمتهم، فقد شاع عن شيخ الطريقة الحنصلية أنه سوغ لأتباعه الملاهي وتمتيع النفس بما تشتهي، كما شاع عن شيوخ آخرين أنهم قالوا لمن رضوا عنه من أتباعهم (إذا تعرضت للنار يتعرض لها فخذي)[2].

وبالتأكيد أن مثل هذه الممارسات التي لا تمد للإسلام بأي صلة، نفرت من الطرق والطرقيين أغلب الناس لاسيما ذوي العقول النيرة الذين عملوا بدورهم على محاربة الطرقية المنحرفة، وحذروا العامة من خطورتها وخطورة الانتماء إليها.

2-2-3- انتشار الخرافات والبدع والشعوذة بين الأتباع:

نعتقد أن بعض الطقوس الدينية والممارسات والعادات السيئة التي انتشرت في الجزائر خلال القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشر الميلادي، وكان أتباع التيار الصوفي أحد أسبابها قد ساهمت بشكل كبير في إضعاف هذا التيار، وأدت إلى تراجع قاعدته الشعبية لاسيما وأنها مخالفة للشرع ومنافية للمنطق كزيارة القبور والأضرحة والتبرك بأصحابها، أو ذبح النذر وتعليق التمائم وادعاء بعضهم القدرة على التنبؤ بالغيب وإشفاء المرضى من جميع الأمراض بغض النظر عن كونها جسدية أو نفسية، ولا غرابة إن قلنا أن من هؤلاء من كان ولا يزال في نظرنا من رجال القلم والسيف، إذ أنهم حملوا على عاتقهم لواء نشر العلم والتعليم بين أبناء الشعب الجزائري في أحلك الظروف، كما حملوا راية الجهاد ضد المحتل الغاشم وإن كنا سنذكر بعضهم فإننا لا نحط من شأنهم ولا ننقص من أعمالهم الجليلة شيئا، لأنه مهما قيل عنهم أو عن أفعالهم فهم في آخر المطاف ـ حسب اعتقادنا ـ قد صدقوا النية لله واخلصوا للدين والوطن، لكن ذلك لا يمنعنا من أن نكون موضوعيين ونلتزم بالأمانة العلمية وهذا ما يقتضيه علينا الواجب كباحثين، فنشير إلى ما قيل أنهم قد أخطئوا فيه إن لم يكن

---

[1] أحمد توفيق المدني، **كتاب الجزائر**، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1984، ص376.

[2] مبارك بن محمد الميلي، **رسالة الشرك ومظاهره**، دار الغرب الإسلامي، بيروت ـ لبنان، ط.5، 1421هـ/2000م، ص ص254-256.

ذلك قد نسب إليهم أو لفق لهم بهتانا وزورا من قبل سلطات الاحتلال أو من منافسيهم أو معارضيهم من بني جلدتهم.

ومن هؤلاء الطرقيين نذكر الشيخ بوبغلة الذي قيل أنه نصب خيمة في سوق سور الغزلان، وكان يقوم بكتابة التمائم[1]، ويداوي المرضى، ويمارس مهنة التنجيم[2]. وكذلك الثائرة والزعيمة المشهورة لالا فاطمة نسومر مقدمة زاوية ورجة الرحمانية بمنطقة جرجرة التي قيل عنها أنها كانت تدعي المعرفة بالغيبيات[3]. أما سي الصادق بن الحاج زعيم ثورة 1272هـ/1858م فقد ذكر لأتباعه في الرسائل التي بعث بها إليهم يحثهم فيها على الجهاد أن الرسول صلى الله عليه وسلم تراءى له في المنام، وأمره بمواصلة عمل الشيخ بوزيان وأخبرهم أن الحجارة سوف تتحول إلى رصاص أثناء المعركة والتراب سيتحول إلى بارود والملائكة سوف تحارب إلى جانب المؤمنين[4]. وقيل عن الشيخ محمد أمزيان بن عبد الرحمان زعيم ثورة الأوراس سنة 1293هـ/1879م أنه كانت له خوارق لا تتآتى إلا لأمثاله من الطرقيين كاستنطاقه للبرمة مما جعل أتباعه يلقبونه بالشيخ بوبرمة[5].

وقد كان الشيخ بوعمامة يزور قبور الأولياء والصالحين ليتبرك بهم اعتقادا منه أن لهم القدرة على ترجيح الكفة لصالحه، وهزم قوات الاحتلال الفرنسي[6]. وفي إحدى الزوايا بمنطقة القبائل وهي زاوية أودريس التي سبق الحديث عنها في هذا البحث يؤتى بالمريض إلى شيخ الزاوية الذي يعطيه ماءا

---

[1] جمع تميمة وهي ما يعلق على الإنسان لدفع الآفات عنه وأكثر ما تعلق على الرضع. للمزيد يراجع: مبارك بن محمد الميلي، **المرجع نفسه**، ص157

[2] سعيدي مزيان، **قضايا ودراسات تاريخية**، مطبعة النجاح، الجزائر، 1434هـ/ 2013م، ج2، ص30.

[3] يحي بوعزيز، **ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين**، دار البعث للنشر والتوزيع، قسنطينة ـ الجزائر، ط.1، 1400هـ/1980م، ص102.

[4] عبد الحميد زوزو، **الأوراس إبان فترة الاستعمار الفرنسي التطورات السياسية الإقتصادية والاجتماعية (1837 ـ 1939)**، ترجمة: مسعود حاج مسعود، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2005 ـ 2006، ج1، ص153.

[5] عبد الحميد زوزو، **ثورة ابن جار الله (بوبرمة) بالأوراس سنة 1879**، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ص63.

[6] عبد القادر خليفي، **المقاومة الشعبية للشيخ بوعمامة**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2010، ص ص57-58.

مرق ليشرب منه ثم يرش به وجهه وبعد ذلك يطلب منه أن يطوف سبع مرات حول الضريح المتواجد بهذه الزاوية ليشفى من مرضه[1].

مع العلم أن أغلب أولئك الذين كانوا يزورون القبور والأضرحة ويتبركون بها، يجهلون حقيقة أصحابها لأنه لو كانوا يعلمونها لما فعلوا ذلك، فمن أصحاب هذه القبور والأضرحة من لم يكن في يوم من الأيام لا ولي ولا عالما ولا شيخ طريقة أو زاوية، ولا يعلم أكان صالحا أو فاسدا في حياته، بل قد يكون جاهلا أو مجنونا، كصاحب الضريح الموجود خارج مدينة قسنطينة بمنطقة آدكال الذي يعرف بضريح سيدي مدين، هذاالأخير الذي قال عنه عبد الكريم الفكون أنه كان في حياته شخصا مجنونا، يتعرض للناس ويخدشهم بأظافره وينهشهم بأسنانه ويضربهم، إلا أن أهله وأقاربه أظهروه للناس على أنه من الصالحين طمعا في جلب الدنيا من أجله، ولما مات دفن بهذا المكان وأقيم عليه جامع يعرف بجامع سيدي مدين وهو مزار للناس يتبركون به ويعتقدون فيه الخير والشر.[2]

وكان بعض الطرقيين يوهمون مرضاهم بأن لهم القدرة على علاج مرضهم من خلال تقديم حرزا[3] لهم يتلاءم وذلك المرض[4]، وإن كان المريض متعدد الأمراض فيقدمون له حرزا يشفي جميع الأمراض مهما كانت نوعيتها[5]، ويطلبون منه لف هذا الحرز بقطعة قماش ذات لون معين أو جلد حيوان كأن يكون جلد ذئب، أو يلفه بمعدن معين وغالبا ما يكون هذا المعدن هو النحاس، ثم يقوم

---

[1] محمد أكلي حديبي، **أودريس الزاوية العامرة**، ترجمة عبد القادر بوزيدة، منشورات زرياب، الجزائر، د.س، ص35.

[2] عبد الكريم الفكون، **منشور الهداية في كشف حال من إدعى العلم والولاية**، تقديم وتحقيق وتعليق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت ـ لبنان، ط.1، 1408هـ/1987م، ص-ص.177-178

[3] وهو ورقة أحيانا وأحيانا أخرى قصاصة ورقية مكتوب عليها بعض العبارات والجمل أو الكلمات غير المفهومة ولا المقروءة لصعوبة فك طلاسمها إلا من قبل من كتبها، وقد تتخلل هذه العبارات والجمل بعض الأشكال الهندسية كالنجمة السداسية أو نجمة داوود عليه السلام التي يرمز بها للديانة اليهودية، أو بعض الجداول التي تتضمن أرقام وحروف. ينظر:

A.O.M (G.G.A)16H1

[4] A.O.M (G.G.A) 16H1.

[5] A.O.M (G.G.A) 16H1.

صدق مالك بن نبي حين قال: (ومن الطبيعي أن استغلال سذاجة الناس تفسح المجال أمام حيل تضحك اليوم الطفل، لكنها في ذلك العصر تركت أثرا بعيدا في بساطة أولئك القوم). يراجع: مالك بن نبي، **مذكرات شاهد للقرن**، دار الفكر، دمشق ـ سوريا، ط.6، 1430هـ/2009م، ص181.

بتعليقه في رقبته أو يحمله معه في ثيابه، أو يضعه تحت وسادته ولا يتخلى عنه أبدا، فإذا رحل هذا المريض إلى مكان آخر أو سافر أخذ معه هذا الحرز، وبالتأكيد هذا شيء مخالف لأحكام الشريعة الإسلامية وهو ما يدل على انحراف هؤلاء الطرقيين عن الدين الإسلامي عن علم أو عن جهل منهم.

2-2-4- فشل المقاومة:

بما أن أغلب الثورات التي اندلعت خلال القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشر الميلادي كانت بقيادة أتباع التيار الصوفي فإن هؤلاء قد تحملوا وحملوا النتائج السلبية المترتبة عنها بعد فشلها، لكونهم منحوا الناس باسم الدين الوعود تلوى الأخرى، هذه الوعود التي ذهبت أدراج الرياح بعد أن منيوا بهزائم أمام قوات الاحتلال الفرنسي وهذا ما جعل أغلب الناس يفقدون الثقة فيهم[1]، ويعاتبونهم عن هذا الفشل، كما هجاهم بعض الشعراء بمرارة وعنف.

وكمثال عن هذا الهجاء هذه الأبيات التي قال فيها صاحبها:

سيء حظك يا شيخ بن عراب
لماذا اختفيت أيها الولي ؟
لماذا كنت تقول لنا:
النصارى لن يطلعوا إلى جبالنا
وأخيرا، أخضعوها حتى آيت يني ؟[2]

2-2-5- الزواج بالفرنسيات:

نعتقد أن زواج بعض شيوخ الطرق الصوفية أو أحد أفراد عائلتهم من الفرنسيات أدى بشكل أو بآخر إلى إضعاف الطريقة التي ينتمي إليها هؤلاء، وإلى تراجع قاعدتها الشعبية فقد تزوج حمزة بن بوبكو آغا جبل عمور وهو من أسرة أولاد سيدي الشيخ بفرنسية اسمها فيري Feret وهي بنت لقائد مشاة فرنسي كان في حالة تقاعد[3]، وتزوج أحمد التجاني من الفرنسية أوريلي بيكار Aurélie Picard التي كان والدها ضابط في الدرك الفرنسي[4]، وقد غيرت نمط الحياة في الزاوية التيجانية بعين ماضي

---

[1] هانوتو ولوتورنو، **منطقة القبائل الكبرى: العادات القبائلية التنظيم السياسي والإداري**، ترجمة مزيان الحاج أحمد قاسم، منشورات كرجا للنشر والتوزيع، تيزي وزو ـ الجزائر، 2013، ص152.

[2] هانوتو ولوتورنو، **المصدر نفسه**، ص153.

[3] أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج4، هـ.ص105.

[4] أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج4، ص ص.311-312.

تماما، وبنى لها أحمد التجاني أو بنت لنفسها قصر كوردان على بعض الكيلومترات من عين ماضي، وكان هذا القصر على الطراز الأوروبي من حيث الأثاث والمأكل والمشرب والمتنزهات، وكان الضيوف الفرنسيون ينزلون فيه كما ينزلون في أي قصر أوروبي[1].

ونعتقد أن زواج أحمد التجاني بهذه الفتاة الفرنسية وما أدخلته هذه الأخيرة من تعديلات على نمط الحياة في الزاوية الأم، كان أحد الأسباب التي حرمته من تولي مشيخة الطريقة بعد وفاة شيخها محمد العيد بن الحاج علي الينبوعي، شيخ زاوية تيماسين سنة 1289هـ/1875م، رغم أن المعتقد العام هو أن الوراثة للبركة متبادلة بين عائلة سيدي أحمد التجاني في عين ماضي وعائلة الحاج علي الينبوعي في تيماسين، وهو ما جعل أيضا أحباب الطريقة يقبلون ويرضون بتولي الشيخ محمد الصغير بن الحاج علي للمشيخة بعد أخيه محمد العيد بدلا من أحمد التجاني دون إبداء أي اعتراض أو رفض منهم، لكن ذلك لم يمنع من حدوث شرخ بين الزاويتين والعائلتين ظهرت آثاره جليا بعد وفاة أحمد التجاني سنة 1311هـ/1897م إثر الخلاف الذي حدث بين الزاويتين على مكان دفنه.

الخاتمة:

بعد العرض لموضوع البحث توصلنا إلى جملة من النتائج التي نلخصها في النقاط التالية:

- إن التيار الصوفي شكل على مدار عدة عقود من القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشر الميلادي، العدو الحقيقي والفعلي للسلطة الفرنسية، مما جعلها تركز اهتمامها على مراقبة أتباعه والانشغال بالقضاء عليهم أو استمالتهم إلى صفها تدريجيا باعتبارهم مصدر خطر حقيقي على وجودها وتواجدها في الجزائر.

تتحدث بعد الروايات على أن السيد أحمد التجاني قد تزوج بأوريلي بيكار (Aurélie Picard) حينما كان في بوردو بفرنسا، وقد وافقت على هذا الزواج كنيسة بوردو وباركته، وكذلك باركه الكاردينال لافيجري (Lavigerie) في الجزائر، بينما هناك من يعتقد أن هذا الزواج قد تم على سنة الله ورسوله، وأن المفتي الحنفي هو الذي حرر العقد بعد رجوع الزوجين من فرنسا سنة 1286هـ/1872م. يراجع: أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج4، ص ص.213-214، وللاطلاع على نسخة عقد الزواج الذي حرره المفتي الحنفي ينظر: محمد الحافظ التجاني، **الانتصاف في رد الافتراء على السادة التجانية**، الزاوية التجانية، تماسين ـ الجزائر، 12 ربيع الأول 1429هـ، ص36.

[1] أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج4، ص ص.230-214.

- إن التيار الصوفي كان إلى غاية أواخر العقد السابع من ذلك القرن يشكل قوة بشرية واقتصادية، له وزنه وأهميته في الجزائر، وهذا ما جعل الاستعمار الفرنسي يعمل على كسب بعض شيوخه وأتباعه وتوظيفهم لصالحه والاستفادة من قوتهم.
- إن التيار الصوفي، رغم تلقيه لضربات قوية وموجعة من قبل السلطة إلا أنه استطاع أن يحافظ على كيانه ووجوده، بسبب ما لمسه فيه أتباعه من إمكانيات تساعدهم على الهروب من الواقع المتردي، ولما فيه من وسيلة ضمنية للتعبير عن عدم رضاهم عن الحكم السائد.
- إن التيار الصوفي المتميز بتكوينه المتماسك وبحرصه الشديد على المحافظة على تراثه بوصفه كلا متكاملا، لأنه يعد الوسيلة الوحيدة التي يعبر بها عن وجوده وعلى تماسكه، فإن قاعدته الشعبية خضعت من ناحية أخرى لعوامل التغير التي اعترت حياتها أواخر ذلك القرن، فاستجابت لهذا التغير ووعته سواء كان تغيرا سياسيا أو اجتماعيا أو ثقافيا.
- إن تعاون بعض أتباع التيار الصوفي مع السلطة الفرنسية وتأييدهم لها، وكذا انخراط بعضهم في سياسة نشر البدع والخرافات والانحرافات التي روجت لها هذه السلطة كثيرا، وعملت على بثها في أوساط الجزائريين، جعلت هذا التيار يدفع الثمن غاليا من خلال بروز بوادر ضعفه وتراجعه أواخر القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشر الميلادي، لاسيما خلال العقد الأخير من هذا القرن.

قائمة المراجع:

1. أجرون (شارل روبير)، **الجزائريون المسلمون وفرنسا 1871-1919**، نقله إلى العربية م. حاج مسعود وأ. بكلي، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 2007.
2. أجرون (شارل روبير)، **تاريخ الجزائر المعاصرة من انتفاضة 1871 إلى اندلاع حرب التحرير1954**، ترجمة جمال فاطمي وآخرون، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط.1، 2008.
3. بلغيث (محمد الأمين)، **تاريخ الجزائر المعاصر (دراسات ووثائق)**، دار مدني للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2009.
4. بوعزيز (يحي)، **ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين**، دار البعث للنشر والتوزيع، قسنطينة ـ الجزائر، ط.1، 1400هـ/1980م.
5. بوعزيز (يحي)، **موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب**، دار الهدى، عين مليلة ـ الجزائر، 2009.

6. ترومللي (س)، **الفرنسيون في الصحراء**، ترجمة محمد المعراجي، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحوث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، غرناطة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013.
7. التجاني (محمد الحافظ)، **الانتصاف في رد الافتراء على السادة التجانية**، الزاوية التجانية، تماسين ـ الجزائر، 12 ربيع الأول 1429هـ.
8. جوليان (شارل أندري)، **تاريخ الجزائر المعاصرة الغزو وبدايات الاستعمار 1827-1871**، ترجمة جمال فاطمي وآخرون، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط.1، 2008.
9. حديبي (محمد أكلي)، **أودريس الزاوية العامرة**، ترجمة عبد القادر بوزيدة، منشورات زرياب، الجزائر، د.س.
10. خليفي (عبد القادر)، **المقاومة الشعبية للشيخ بوعمامة**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2010.
11. الخالدي (سهيل)، **الجزائر وبلاد الشام (صفحات من النضال المشترك ضد الاحتلال)**، منشورات الحضارة، الجزائر، ط.1، 2013.
12. دونوفو (إدوارد)، **الإخوان دراسة إثنولوجية حول الجماعات الدينية عند مسلمي الجزائر**، ترجمة وتحقيق كمال فيلالي، شركة دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة ـ الجزائر، 2003.
13. الراشدي (أحمد بن عبد الرحمان الشقراني)، **القول الأوسط في أخبار بعض من حل بالمغرب الأوسط**، تحقيق وتقديم ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، ط.1، 1991.
14. [14] زوزو (عبد الحميد)، **الأوراس إبان فترة الاستعمار الفرنسي التطورات السياسية الاقتصادية والا جتماعية (1837 ـ 1939)**، ترجمة: مسعود حاج مسعود، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2005 .2006.
15. زوزو (عبد الحميد)، **ثورة ابن جار الله (بوبرمة) بالأوراس سنة 1879**، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2013.
16. سعد الله (أبو القاسم)، **تاريخ الجزائر الثقافي**، دار البصائر، الجزائر، ط.6، 2009.
17. سعد الله (أبو القاسم)، **الحركة الوطنية الجزائرية**، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، ط.6، 2009.
18. سعيدوني (ناصر الدين)، **الجزائر منطلقات وآفاق**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط.1، 2000.

19. سعيدوني (ناصر الدين)، **الشرق الجزائري (بايلك قسنطينة أثناء العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي من خلال وثائق الأرشيف)**، تقديم وتعليق وترجمة ناصر الدين سعيدوني، البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013.
20. شتره (خير الدين)، **قضايا التصوف ومظاهر الصوفية وأبحاث عن نزعة الإصلاح وبعض أعلامه في الجزائر**، دار الصديق لنشر والتوزيع، سطيف، الجزائر، 2015، دار الصديق للنشر والتوزيع، سطيف ـ الجزائر، ط.خ، 2015م.
21. العجيلي (التليلي)، **الطرق الصوفية والاستعمار الفرنسي بالبلاد التونسية (1881 ـ 1939)**، منشورات كلية الآداب بمنوبة، جامعة تونس1، 1992.

22. الفكون (عبد الكريم)، **منشور الهداية في كشف حال من إدعى العلم والولاية**، تقديم وتحقيق وتعليق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت ـ لبنان، ط.1، 1408هـ/1987م.
23. القشاعي (فلة موساوي)، **الواقع الصحي والسكاني في الجزائر أثناء العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي 1518 - 1871**، منشورات بن سنان، الجزائر، 2013.
24. المدني (أحمد توفيق)، **كتاب الجزائر**، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1984.
25. [25] مزيان (سعيدي)، **السياسة الاستعمارية الفرنسية في منطقة القبائل ومواقف السكان منها (1871هـ – 1914م)** ، دار سنجاق الدين للنشر والتوزيع، د.ب، ط.1، 1431هـ/2010م.
26. مزيان (سعيدي)، **قضايا ودراسات تاريخية**، مطبعة النجاح، الجزائر، 1434هـ/ 2013م.
27. المزاري (الآغا بن عودة)، **طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر**، تحقيق ودراسة يحي بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، بيروت ـ لبنان، ط.1، 1990.
28. معاشي (جميلة)، **الحياة الاجتماعية والثقافية والدينية بقسنطينة من خلال سجل مراسلات لجنة الشؤون الدينية (1885 ـ 1904)**، منشورات بونة للبحوث والدراسات، عنابة ـ الجزائر، ط.1، 1433هـ/2012م.
29. مناصرية (يوسف)، **مهمة ليون روش في الجزائر والمغرب 1832 – 1847**، المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار، رويبة ـ الجزائر، ط خ، 2007.
30. مياسي (إبراهيم)، **الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية 1837-1934**، دار هومة، الجزائر،2005.

31. الميلي (مبارك بن محمد)، **رسالة الشرك ومظاهره**، دار الغرب الإسلامي، بيروت ـ لبنان، ط.5، 1421هـ/2000م.
32. بن نبي (مالك)، **مذكرات شاهد للقرن**، دار الفكر، دمشق ـ سوريا، ط.6، 1430هـ/2009م.
33. هانوتو ولوتورنو، **منطقة القبائل الكبرى: العادات القبائلية التنظيم السياسي والإداري**، ترجمة مزيان الحاج أحمد قاسم، منشورات كرجا للنشر والتوزيع، تيزي وزو ـ الجزائر، 2013.
34. ولد خليفة (محمد العربي)، **الجزائر المفكرة والتاريخية أبعاد ومعالم**، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007.
35. André Julien (Charles), **Histoire de L'Algérie Contemporaine**, Presse Universitaire de France, Paris, 1964.
36. Depont (Octave) et Coppolani (Xavier), **Les Confréries Religieuses Musulmanes en Algérie**, Adolphe Jourdan, Alger, 1897.
37. Rinn (Louis), **Marabouts et Khouan étude Sur L'islam en Algérie**, Adolphe Jourdan, Alger, 1884.
38. Zouzou (Abd Ehhamid), **L'Aurés au temps de La Fronce Coloniale (Evolution politique economique economique et sociale 1837 – 1939)**, Edition distribution Houma, Alger, 2é Edition, 2002.
39. Archives D'outre-mer (Gouvernement Général De L'Algérie).
40. A.O.M (G.G.A) 16H1.
41. A.O.M (G.G.A) 16H3.
42. A.O.M (G.G.A) 16H49.
43. A.O.M (G.G.A) 16H60.
44. A.O.M (G.G.A) 16H61.